

من كتاب "تبادل الأمتعة": قراءة في ديستوفيسكي (2) الفصل الثالث: "حركية العلاقات البشرية جدلاً وامتناداً في الإخوة كارامازوف" (2 من 2؟)



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2021/08/22

السنة الرابعة عشرة - العدد: 5104

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

مقدمة:

نواصل اليوم عرض نقد الأخوة كارامازوف وأعتذر مكرراً لصدور هذا النقد مجزئاً هكذا، لكنني اقتنعت أثناء مراجعتي أنه يستحق أن يقرأ ببطء، بل إنني أوصي أن نقرأ ما ينشر لاحقاً مع ما ينشر تباعاً. أنا أسف

.....

سابعاً: ليس مدحاً أن يكون عالماً نفسياً:

لا أعتقد أن وصف ديستوفيسكي بأنه عالم نفسي أو طبيب نفسي هو مدح بأي صورة من الصور، بل لعل العكس هو الصحيح أي أنه ربما يكون ذمماً. ديستوفيسكي يرى النفس - واقعا - قبل وبدون وبالرغم من كل ما هو علم نفس، (علم نفس صحيح أم غير ذلك).

ثامناً: دوائر العائلات

استطاع ديستوفيسكي في هذا العمل الضخم أن يحرك ثلاث دوائر متماسة متقاطعة معاً، تمثل ثلاث عائلات: عائلات كارامازوف، وإيليوشا، وكوليا، ثم وضع - في وضع التماس الهامشي - ثلاث عائلات أخرى بدقة حاذقة، هي: عائلات كاتيا، وجريجوري، وهوخلاكوفا. هذه الدوائر الست كانت تلتقي وتتماس وتتداخل وتتباعد بشكل مثير متشابك معاً.

تاسعاً: وجه الشبه مع حالنا في مصر الآن

استشعرت - بشكل ما - وهو يتكلم عن روسيا، الأرثوذكسية، والكنيسة الدولة، والدولة الكنيسة كأنه أحياناً ينشر مقالات تصلح أن تنشر اليوم في صحيفة الأخبار، أو مجلة أكتوبر، أو حتى الأهالي - وقد خلصت من ذلك إلى أننا أقرب إلى ما هو روسيا (وليس الاتحاد السوفيتي) منا إلى أوروبا، وأن إسلامنا "في مصر (الإسلام التلقائي الممارس يوميًا) يمكن أن يكون ذا نكهة قبطية روسية بشكل ما (إن صح التعبير). وعلى ذلك: فإما أن المشاكل أزلية تتكرر، وإما أننا متخلفون عما ينبغي أن نكونه قرناً أو بضعة قرون.

عاشراً: دقة التعبير وعمق الرؤية:

دعوني أرسأ أمامكم بعض الفيسيفاء التي تناثرت في الرواية هنا وهناك لترينا أي عمق وصل إليه ديستوفيسكي في وصفه الذات البشرية ظاهراً وباطناً. دقة التعبير - كما استعملتها هنا، لا تعنى جمالاً في الأسلوب، لكنها تعنى أكثر: تمكناً من الأعماق، وهو تمكن يحذقه ديستوفيسكي من أول لمسة إدراك،

لا أعتقد أن وصفه ديستوفيسكي بأنه عالم نفسي أو طبيب نفسي هو مدح بأي صورة من الصور، بل لعل العكس هو الصحيح أي أنه ربما يكون ذمماً. ديستوفيسكي يرى النفس - واقعا - قبل وبدون وبالرغم من كل ما هو علم نفس، (علم نفس صحيح أم غير ذلك).

فيرصد أعماقنا بمجهر شديد الحساسية، ثم يتمادى فى العزف على أوتار الداخل والخارج حتى يتم هذه الجزئية من اللحن باستطراد يكشف ويتكشف فيفاجئ ويحرك - هذا فى أغلب الأحيان وليس فى كل الأحيان، وقد يخرج من الوصف بتعميم لقضية الاختلاف عن المجموع تصعيدا، أو بتفصيل أنوثة التثنى فى إصبع القدم الصغيرة، ثم نفاجا بأنه يصف الشخصية برمتها.

والآن: لنبدأ بمقتطف دال من الرواية:

”لأن الإنسان الشاذ ليس حتما - ليس دائما - ذلك الذى يبتعد عن القاعدة... حتى لقد يتفق أن يحمل فى ذاته حقيقة عصره بينما يكون الناس، جميع الناس من معاصرة، قد ابتعدوا عن القاعدة إلى حين كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على حين فجأة(2) ”

ها هو إذ يبدأ بالتأكيد على رفض السواء الإحصائى لا يساير مقولة أن العبقري (أو الشاذ) هو الذى يبتعد عن القاعدة بمعنى أنه سابق لعصره، أو أنه الناضورجى كما أسماه لى يوسف إدريس ذات مرة، وإنما هو يؤكد أنه هو الممثل الحقيقى لعصره، وبالتالي يكون المجموع هو الذى ابتعد لظروف ربما تتعلق بتغير مسيرة تطوره - (تطور المجموع - فيكون الفرد، هذا الفرد، هو الأكثر تمثيلا لعصره).

ثم مقتطف آخر بعيدا عن التجريد يرينا كيف يدخل ديستوفسكى إلى وصف الشخصية من مدخل التأكيد على حيوية جزئية بدنية كما ذكرنا حالا.

”إن فى جسمها (جروشكا) نوعا من تثن تراه فى الساق أيضا، وتراه حتى فى الأصبع الصغير من قدمها اليسرى(3) ”

ثم انظر قوله:

” فيه استعداد للإصابة بمرض السل(4) ”

وكان هذا الاستعداد فى ذاته يصلح وصفا لتقاطيع وجه إنسان!! ثم يلحق
”متزوج امرأة عاقرا..“

وكان هذا وذاك يظهر فى السلوك مباشرة حتى يميزه.

ثم انظر وصفه لنظرة عين آخرين مثل

”يثبتان عليه أعينهما، بل يغرسانهما فى لحمه غرسا مثل الحشرات تمص دمه(5) ”

ثم قوله:

” شاحبة الوجه قليلا، لها عينان توشكان أن تكونا سوداوين على سطوع شديد وحركة قوية(6) ”

ثم أنظر دقة التعبير عن عجزه ثم تصوير الثراء الداخلى بالعجز عن تصويره:

”... لقد فهم الأب بائيسى- فيما يبدو- ”لا فهما كاملا والحق يقال، لكنه فهم فيه كثير من نفاذ

البصيرة للحالة النفسية التى كان عليها أليوشا (7) ”

”ولكن يجب على أن أعترف مع ذلك بأننى لو أردت أن أشرح على وجه الدقة معنى تلك الدقيقة

الغريبة المبهمة فى الحياة الداخلية التى عاشها بطلى الذى أحبه كثيرا، والذى مازال فى ريعان الشباب

لكان صعبا على كل الصعوبة(8) ”

ثم فى تجسيده لصور الذاكرة:

”إن طفولتى تثبتت أمامى، حتى يخيل إلى أننى انتفست كما كنت أنتفست فى طفولتى بذلك الصدر

الصغير صدر الطفل الذى لم يتجاوز الثامنة من عمره(9) ”

وعن سمردياكوف

”ولكنه سيظل محتفظا فى قرارة نفسه بالمشاعر التى تجمعت له أثناء استرساله ذاك فى أحلامه، وهى

مشاعر عزيزة عليه أثيرته عنده، يجمعها فى نفسه طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به، وهو لا

خلصت من ذلك إلى أننا
أقرب إلى ما هو روسيا (وليس
الاتحاد السوفيتى) منا إلى
أوروبا، وأن إسلامنا ”فى مصر
(الإسلام التلقائى الممارس
يومية) يمكن أن يكون ذا
نكمة قبطية روسية بشكل ما
(إن صح التعبير).

لأن الإنسان الشاذ ليس حتما
- ليس دائما - ذلك الذى
يبتعد عن القاعدة... حتى
لقد يتفق أن يحمل فى ذاته
حقيقة عصره بينما يكون
الناس، جميع الناس من
معاصرة، قد ابتعدوا عن
القاعدة إلى حين كأنما
دفعتهم عنها ريح هبت عليهم
على حين فجأة

يدرى طبعا لماذا يفعل ذلك (10) ”

ونلاحظ هنا كيف أنها مشاعر - وليست أفكارا.

الرواية:

لم أستقر أبداً على كيف يمكن أن أقدم هذا السفر الضخم، قارئاً بحروف مكتوبة، أى ناقداً بشكل ما. سوف أحاول الدخول على ثلاث محاور الأولى: تساؤلات، والثاني: موضوعات، والثالث أشخاص. برغم استحالة الفصل - طبعا - ورغم احتمال التكرار - بداهة - إلا أن هذا هو الممكن حالياً.

أولاً: تساؤلات

الرواية تثير تساؤلات بلا حصر، وهى لا تثيرها لكى تجيب عليها، ولكن لكى ننظر فيها نحن دون إلزام بالإجابة أيضاً، من هذه التساؤلات الأساسية مثلاً:

- هل تمثل هذه الرواية مرحلة نضج لديستوفسكى، (خاصة وأنه كتبها قبل وفاته بعام واحد)؟.
- وهل هى تتميز بوضع خاص بين رواياته؟.
- وهل الحل الذى عرضه (فناء الذات الفرد فى المجموع بالحب الفعال، ثم الأمل فى المستقبل) هو المخرج الذى توصل إليه بعد رحلة حياته، أم أنه مازال يواجه التحدى فى الوجود الأزلئ رغم كل ما يلوح فى الرواية؟

- وما هى الكارامازوفية، ومن هو الراوى ؟

نبدأ من الآخر

ماهى الكارامازوفية؟

من خلال هذه الأسرة: أسرة كارامازوف يقدم لنا ديستوفسكى النفس الإنسانية / الحياة / الآن، أساساً وكأنه يفعل مثلما فعل أفلاطون حين أخرج الذات البشرية ووضعها فى جمهورية، ومازال الناس يناقشون جمهوريته على أنها جمهورية وليس على أنها النفس البشرية. ذلك أننى استقبلت كل أفراد عائلة كارامازوف ليس باعتبارهم مراحل متلاحقة فى حياة ديستوفسكى، وإنما باعتبارهم صوراً لحياة أنية حية داخلية وخارجية (داخلنا وخارجنا) بزخمها وجدلها وتناقضاتها وولافها.

إن ديستوفسكى هنا يعرض - من خلال أسرة كارامازوف - بانوراما الحياة بما يشمل العلاقة بالحياة، لعله يجسد ما هو حياة فيه أساساً، وهذا لايعنى أن أفراد الرواية مصنعون لأداء دور، وإنما هم حاضرون لتحقيق أوجه الحياة كما تتبدى فى حركة مكوناتها: "أفراداً - فى واحد/ الكل". لعله من المفيد أن أشير إلى ضرورة النظر فى كيف تكرر لفظ الحياة، بل وبالذات، "حب الحياة"، على لسان أفراد الرواية عامة، وأسرة كارامازوف خاصة، اللذى منهم، والمعلمين، والمرتدين، والصرعى. وإذا قلنا الحياة: فإن ثمّ طولاً، وثمّ عرضاً. هذه الرواية بعكس روايات الأجيال تقدم لنا الحياة بالعرض أكثر مما تقدمها بالطول، فالأحداث كلها - كما قلت - لم تستغرق سوى أياما (لم أتمكن من عدّها بعد، بل إنى لم أرغب فى ذلك). ومع ذلك فهى ليست رواية أنية تدور فى اللحظة، وإنما هى تدور اللحظة، وتحدد أغلب توجهاتها، وتترحل فى أعماقها، ثم تنطلق منها إلى ما بعدها حتى أبعد البعد (سوف يتذكر هذا التعبير، سوف يتذكرون لون الوجه.... الخ)

ما هى الكارامازوفية بعد هذا؟

هذا بعض ما وصلنى على أية حال:

1/هى "حب الحياة": "وأرى أن تصنيف الكارامازوفيين إلى حسى، ومفكر، وملاك.. حتى بواسطة الكاتب نفسه، هو تصنيف سطحي، (سأرجع إلى نقده فى حينه) وبالتالي: فإن القاسم المشترك الأعظم بينهم بغض النظر عن ظاهر موقفهم ومحتوى فكرهم هو "حب الحياة"

إن طفولتى تنبئنى أمامى،
حتى يخيّل إلى أننى اتنفس
كما كنته أننفس فى
طفولتى بذلك الصدر الصغير
صدر الطفل الذى لم يتجاوز
الثامنة من عمره

لم أستقر أبداً على كيف
يمكن أن أقدم هذا السفر
الضخم، قارئاً بحروف مكتوبة،
أى ناقداً بشكل ما. سوف
أحاول الدخول على ثلاث
محاور الأولى: تساؤلات،
والثانى: موضوعات، والثالث
أشخاص

“ إننى أحب الحياة، إننى أسرف فى حب الحياة حتى لأخجل من ذلك. (11) ”

(قالها ديمترى فى موقف قبيل الإنتحار)

2/ وهى اندفاع الجموح

“مندفعا ذلك الإندفاع الجامح الذى يتميز به آل كارامازوف (12) ”

3/ وهى “ الشهوة – البساطة “:

لأليوشا: “... أنت واحد من هذه الأسرة تاما كاملا.. ولابد أن تؤمن بأن للعرق وللوراثة أثرا رغم كل

شئ، أنت شهوانى من جهة أبيك بسيط من جهة أمك. (13) ”

هذا الإنشقاق من أسخف ما وقع فيه ديستوفيسكى، سواء بأن يجعل الشهوة فى مقابل البساطة، أو بأن يلصق هذا بأبيه وذاك بأمه – لكنه يبدو أنه قد تدارك ذلك حين جمع هذه الصفات معا دون تميز: نقرأ ما قاله راكيتين لأليوشا:

“هم أناس شهوانيون، أناس طماعون، أناس بسطاء. (14) ”

4/ وهى الطفولة الجامحة: ولكن أين تقع الطفولة فى هذه القضية: هل هى فى شهوة الإندفاع، أم

فى سذاجة البساطة؟ يقول ديستوفيسكى فى موقع آخر:

“إن القساة الضواري أصحاب الأهواء الجامحة، من أمثال آل كارامازوف- كثيرا ما يحبون

الأطفال (15) ”

ولنا أن نتساءل لماذا يحبون الأطفال: أهو بديل؟ أهو إسقاط؟ أهو تفعيل؟ (16)

ربما يكون الكارامازوفى هو الطفل مضروبا فى أبعاد مستعرضة بالعرض بدلا من أن ينضج بالطول.

5/ وهى القوة الخام، التى تنحط – أو تتفجر:

“ مندفعا ذلك الإندفاع الجامح الذى يتميز به آل كارامازوف (17) ”

“ قوة آل كارامازوف، قوة الحطة والخسة فى آل كارامازوف (18) ”

يصاحب هذا الجموح والاندفاع أحيانا حب التدنى والقدرة على تحمل ذلك

“ فحين أسقط فى الهوة أتدهور تدهورا تاما.“

“.. فإذا بلغت القرار من هوة الدناءة والخسة طفقت أترنم بنشيد: ألا فلأكن منحطا سافلا (19) ”

لكنها ليست دائما قوة الحطة والتدنى، هى قوة أساسية جوهريّة، أقرب الطرق لظهورها هو طريق

التدنى، لكنها قد تظهر خاما غير مميزة:

“فما إن فتح عينيه حتى أحس فى نفسه بسيل خارق من القوة، فأدهشه ذلك كثيرا، وماهى إلا لحظة

حتى نهض عن سريره بوثة واحدة (20) ”

إذن هى ليست قوة الحطة والخسة فحسب، لكنها قوة (فطرية بيولوجية) خام تظهر فجأة بلا اتجاه وبلا

تفسير، وعند الاستيقاظ بالذات، وهذا ما أسميته أحيانا: **عنف ضخ الوعى**. (تذكر الوجه الإيجابى

للصرع!!!)

6/ وهى “الصلابة الذاتية“:

الكارامازوفيين يعترفون أنهم غير قابلين للإصلاح.

“فهل أصلحنى ذلك؟ كلا ثم كلا، لأنى كارامازوفى“

7/ ثم هم “المحتفظون بالبدائية المستقلة الجافة“ (الحشرة المتوحشة).

الأمر قد يحتاج إلى عودة للنظر فى العلاقة بين الطفل، والقوة الخام، وتلك الحشرة الموصوفة بدقة

متحدية؟ خاصة وقد لعبت الحشرة دورا خاصا فى هذه الرواية فكانت ترمز عادة إلى اللذة الحسية

من خلال هذه الأسرة: أسرة

كارامازوفه يقدم لنا

ديستوفيسكى النفس

الإنسانية / الحياة / الآن،

أساسا وكأنه يفعل مثلما فعل

أفلاطون حين أخرج الذاتية

البشرية ووضعها فى

جمهورية، ومازال الناس

يناقشون جمهوريته على أنها

جمهورية وليس على أنها

النفس البشرية

هى ليست رواية أنبية تدور

فى اللحظة، وإنما هى تدور

اللحظة، وتحدد الخلب

توجهاتها، وتتحرك فى أعماقها،

ثم تنطلق منها إلى ما بعدها

حتى أبعد البعد

المجردة، والصلبة في أن، مع تأكيد ضمنى على تفرد بلا آخر.

“ فيك أيضا تحيا هذه الحشرة ... ” (21) “ هي الحشرة المفترسة الكاسرة”.

ونلاحظ هنا أن الحشرة لا تعنى مجرد الفطرة الحيوانية (22) ، لكنها قد تأتي من الخارج/الداخل

“فاعلم أن حشرة أخرى قد لدغتنى فى تلك اللحظة فى القلب من جسدى.. هي الحشرة المفترسة الكاسرة: (23) ”

ووقفة هنا تستأهل أن نتذكر أن الحشرة فى الواقع العيانى ليست عادة جامحة ولا مندفعة، ولاهى متوحشة مفترسة عامة، فحشرة ديستوفيسكى ليست داخلنا العدوانى الذى يصور عادة فى شكل حيوان كاسر كما اعتاد الناس أن يعبروا عنه، أو كما اعتاد أن يظهر فى الأحلام. (وسأرجع إلى ذلك فيما بعد). إذن فالكارامازوفية هى زخم الحياة فى نبضها الفطرى بقوة الإندفاع والوعى، بما يصاحب ذلك من محاولات التعويض والإنكار والإزاحة والتسامى، وإلى درجة أقل: السمو.

من هو الراوى؟

عجيب أمر الراوى فى هذه الرواية: من هو؟ من أى منطقة يحكى؟ كيف يصل إلى هذه الأعماق وبأى عين يرصد هذه الخلجات عن جزء من الثانية هنا وهناك؟ وكيف سمح لنفسه أن يتخطى الرصد إلى التحليل، بل إلى الحكم على أعمق المشاعر وأدق التناقضات؟

- هل هو مواطن مشاهد قاص من هذه البلدة؟

- هل هو أليوشا متفرجا (ذات مفارقة متألمة)؟

- هل هو الكاتب المبدع حالة كونه خالقا أو متألها يعلم السر وأخفى؟

- وأين موقعه (كرسيه) الذى يسمح له بكل هذه المرونة والرصد؟.

- هل هو وعى فائق فرضي أو هو وعى فائق فعلي، (ذات تكاملية هى ديستوفيسكى نفسه حالة

كونه يرصد ذواته) من الواقع المرصد/ المصهور/ المصدر؟

الأرجح عندى أن الفرض الأخير هو الأقرب للصواب، ولكن لا بد من إثبات ذلك، بتفصيل لاحق (ليس فى هذه الدراسة).

من هو بطل الرواية؟

لماذا سبق ديستوفيسكى بتقرير أن أليوشا هو بطل الرواية؟ هل هو تورط مبدئى لم يستطع أن يفى بحقه؟ أم أنه حلم شخصى وتقمص باطنى.. لم تسعف تلقائية الإبداع فى تحقيقه؟ أعتقد أن الأولى أن يكون البطل هو إما فيدور، وإما إيفان، بل إننى انتهيت إلى أن الأرجح أنه سمردياكوف ولكنه ليس أليوشا على أية حال.

وبعد (مرة أخرى)

أرجو أن تسمحوا لى بالتوقف عند هذه النقطة ونكمل الأسبوع القادم بدءًا بالتركيز على الكاتب وهو يشرح لنا النفس الإنسانية من خلال إبداعه الفائق.

وأنا أستمحكم أن تقرأوا الرواية قبل المضي فى قراءة النقد والرواية موجود تحت أمركم فى الموقع بهذا

[الرباط Link](#)

[الإخوة كارامازوف 1 .. دوستوفيسكى](#)

[الإخوة كارامازوف 2 .. دوستوفيسكى](#)

[الإخوة كارامازوف 3 .. دوستوفيسكى](#)

- [1] يحيى الرخاوى " تبادُل الأُقنعة " دراسة فى سيكولوجية النقد) الهيئة العامة لقصور الثقافة (2006)

- [2] ص 14 ج1

إننى أحب الحياة، إننى أسرفه
فى حب الحياة حتى لأخجل من
ذلك

نلاحظ هنا أن الحشرة لا تعنى
مجرد الفطرة الحيوانية (22)،
لكنها قد تأتي من
الخارج/الداخل
“فاعلم أن حشرة أخرى قد
لدغتنى فى تلك اللحظة فى
القلب من جسدى.. هي
الحشرة المفترسة الكاسرة

- [3] ص 26. ج1
- [4] ص 5.3 ج 2
- [5] ص 555 ج 2
- [6] ص 1.2 ج 2
- [7] ص 261 ج 2
- [8] ص 261 ج 2
- [9] ص 169 ج1
- [10] ص 278 ج1
- [11] ص 399 ج2
- [12] ص 613 ج2
- [13] ص 178 ج1
- [14] ص 178 ج1
- [15] ص 68 ج2

- [16] سأكرر استعمال هذا اللفظ "تفعيل Acting out" وهو تعبير من التحليل النفسي يعنى إخراج محتوى اللاشعور /الداخل بشكل مباشر إلى ظاهر السلوك.

- [17] ص 613 ج2
- [18] ص 115 ج2
- [19] ص 234 ج1
- [20] ص 14. ج1
- [21] ص 235 ج1

- [22] حضر لى تشبيهه باتريك زوسكند لجرينوى بطل "العطر" منذ ولادته "بالقراءة" بما يحتاج إلى مقارنة تفصيلية، خاصة حين نشير إلى الالحاد النشاز باعتباره نيزكا منفصلاً

- [23] ص 248 ج1

إرتباط لحامل النص:

<https://rakhawy.net/%d9%85%d9%86-%d9%83%d8%aa%d8%a7%d8%a8-%d8%aa%d8%a8%d8%a7%d8%af%d9%84-%d8%a7%d9%84%d8%a3%d9%82%d9%86%d8%b9%d8%a9-%d9%82%d8%b1%d8%a7%d8%a1%d8%a7%d8%aa-%d9%81%d9%89-%d8%af%d9%8a%d8%b3-4/>

إرتباط لحامل النص مع المقتطفات:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD220821.pdf>

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقياً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2021 1 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار العاشر)

الشبكة تدخل عامها 21 من التأسيس و 19 على الوبج

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

اشتراكات العضوية بمؤسسة العلوم النفسية العربية للعام 2021

اشتراكات العضوية

عضوية "الشريك الفخري الماسي المميز"

عضوية "الشريك الفخري الماسي"

عضوية "الشريك الشرفي الذهبي"

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

نتذكر أن العشرة هي الواقع
العيانى ليست عادة جامعة ولا
منذوعة، ولا هي متوحشة
مفترة عامة، فحشرة
ديستوبفسكى ليست داخلنا
العدوانى الذى يصور عادة
هى شكل حيوان كاسر كما
الاحتاد الناس أن يعبروا عنه،
أو كما احتاد أن يظهر فى
الأفلام